الدرس الثامن عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده
ورسوله صلى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ..

أمّا بعد..

يقول الحافظ المنذري - رحمه الله - في كتابه كفاية المتعبّد وتحفة المتزهد..

[ما يقال عند الصباح]

[روى شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سيد الاستغفار اللهم أنت ربي لا إله إلا
أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت
أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، إذا قالها حين
يمسي فمات دخل الجنة أو كان من أهل الجنة وإذا قالها حين يصبح فمات يومه مثله " انفرده

البخاري وغيره ،

وقوله أبوء لك بنعمتك قال الهروي : أقر بها وألزمها نفسي وأصل البوء اللزوم ، وأبوء لك بذنبي أي
أعترف طوعاً أي رجعت إلى الاقرار بعد الانكار]

قال المصنف رحمه الله ما يقال عند الصباح ، إدراك المرء للصباح هذه نعمة عظيمة حيث يسر له
الرب جل وعلا أن يكون ممن أدرك هذا الصباح وكان من المصبحين ، فكم من إنسان بات
على فراشه ولم يصبح ، فإذا أصبح المرء وهو بالصحة والعافية والنعمة والرخاء فليذكر نعمة
المنعم جل وعلا الذي به أصبح وبفضله أدرك الصباح " أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله "
يفتتح صباحه ويستهل يومه بالذكر والحمد والثناء والتعظيم للمنعم جلّ في علاه ولهذا جاءت
السنة النبوية بجملة من الأذكار العظيمة التي يشرع للمسلم أن يستهل بها يومه ويفتتح بها

صباحه حتى يكون يومه كله يوماً مباركاً ، لأن ما يكون من المرء في صباحه ينسحب على كل يومه إن نشاطاً فنشاط وإن كسلاً فكسل ، والصباح قيمته عظيمة جداً لا ينبغي أن يُضيع أو يفوت فرصته الثمينة بل ينبغي على المسلم أن يغنم صباحه بذكر ربه وحمده والعناية بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب ، وهذه الأذكار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم أذكار كلها خير وبركة تعود على المرء بالعوائد الحميدة والخيرات المباركة في يومه ، بل وفي دنياه وآخره وإذا استهل المسلم صباحه بهذه الأذكار حُفظ ووُقي وكفي وأعين وسدد في أعماله وبورك له في يومه و أقيلت عثرته وحُفظ له يومه بإذن الله سبحانه وتعالى،

ومن جميل ما يُروى في بيان أهمية حفظ الوقت - الصباح الباكر - بذكر الله ، ما جاء في صحيح مسلم عن أبي وائل - شقيق ابن سلمة - ، ذكر أنهم أتوا بيت عبد الله بن مسعود بعد صلاة الفجر فاستأذنوا بالدخول فأذن لهم فتأخروا قليلاً بعد الإذن بالدخول ثم دخلوا فسألهم ابن مسعود رضي الله عنه عن سبب التأخر وقد أذن لهم فأجابوا بأنهم خشوا أن يكون في طريقهم أحد ، - حتى يُهيا لهم الطريق من إنسان نائم أو نحو ذلك - فقال لهم ابن مسعود رضي الله عنه : " أظننتم بآل ابن أم عبد غفلة ! " .. يعني هذا وقت ما يُنام فيه وإنما وقت يعمر بالذكر لله ، ثم شرع يذكر الله ثم قال للجارية انظري أطلعت الشمس قالت لا ، ثم استمر يذكر الله ثم قال انظري أطلعت الشمس قالت نعم ، فقال كلمة عجيبة قال : " الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا ولم يؤاخذنا بذنوبنا " انظر ماذا قال ، قال الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا مع أنه في أول اليوم لكن هذا من فقهه رضي الله عنه أن من أمسك أول اليوم بالذكر حفظ له اليوم كله ، ولهذا قال بعض السلف " يومك مثل جملك إن أمسكت أوله تبعك آخره " ، ولهذا ينبغي أن يحرص المؤمن على هذا الوقت الثمين من طلوع الصبح إلى طلوع الشمس هذا وقت نزول البركات والخيرات وتقسيم الأرزاق والنبي صلى الله عليه وسلم قال " بورك لأمتي في بكورها " وخير ما يغتنم فيه هذا الوقت المبارك ذكر الله سبحانه وتعالى وأن يحرص المسلم على الأذكار المأثورة عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وأن يحفظها بألفاظها كما جاءت عنه مستحضراً معانيها محققاً ما دلّت عليه

من تعظيم وتوحيد وتنزيه لله ، وقد أورد المصنف رحمه الله في هذا الموضوع جملة من الأذكار المأثورة في الصباح ، بدأها بحديث شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " سيد الاستغفار اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت إذا قالها حين يمسي فمات دخل الجنة أو كان من أهل الجنة وإذا قالها حين يصبح فمات يومه مثله "

أي دخل الجنة أو كان من أهل الجنة ، والنبي صلى الله عليه وسلم سَمَّى هذه الصيغة الواردة في هذا الحديث بهذه التسمية " سيد الاستغفار " لأنها أكمل صيغة وأفضل صيغة للاستغفار ، لأن السيد من معانيه المقدم على غيره لحسن صفاته وخصاله وخلاله ولتمييزه بالصفات الفاضلة الحسنة الطيبة ، المقدم على غيره يقال له السيد ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أطلق على هذه الصيغة هذا الوصف " سيد الاستغفار " لأنه أكمل صيغ الاستغفار وهي صيغة عظيمة جداً فيها من التذلل والخضوع لله والاعتراف له بالعظمة والربوبية وكمال التدبير والتسخير والإقرار بالعبودية والذل له سبحانه وتعالى والاعتراف بالنعمة والاعتراف بالتقصير في حقه وجنبه سبحانه وطلب إقالة العثرة وغفران الذنب ، فهي صيغة عظيمة جداً وحرى بمن أكرمه الله بأن يستفتح يومه بهذا الاستغفار ويختتم يومه - لأنها تقال في الصباح والمساء - إن مات أن يكون من أهل الجنة ، لكن بشرط اليقين كما جاء مصرحاً بذلك في بعض ألفاظ الحديث ، قال: " من قالها موقناً بها " لا يكفي أن تجرى ألفاظ الأذكار على اللسان بل لابد من استحضر المعنى واليقين " ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة فإنه لا يستجيب لقلب غافل لاه " ولهذا إذا دعا المسلم بهذه الدعوات أو غيرها يدعو بحضور قلب ويقين وثقة بالله وحسن التجاء إليه سبحانه وتعالى وفهم لمعاني ما يقول من أذكار وتحقيق لما دلت عليه من التعظيم والتمجيد والثناء والتوحيد لله سبحانه وتعالى

قال " سيد الاستغفار اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت "

أنت ربي هذا توحيد الربوبية ، ولا إله إلا أنت هذا توحيد الألوهية ، ومن لازم إقرار العبد بأن الله وحده هو الرب لا شريك له أن يفرد بالعبادة وأن يخلص الدين له ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فالعبادة حق لله المتفرد بالخلق ، خلق هذه الكائنات وإيجاد هذه المخلوقات لا شريك له ، فكما أنه الرب وحده فالواجب أن يفرد بالعبادة وحده وأن لا يصرف شيء من العبادة إلا له ،

" أنت ربي لا إله إلا أنت " ومعنى لا إله إلا أنت أي لا معبود بحق سواك

ثم أكد المعنى العظيم بقوله " خلقتني وأنا عبدك " خلقتني وأوجدتني من العدم ﴿ هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهرِ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ فالله أوجد هذا الانسان وخلقه وأمده بالسمع والبصر والصحة والعافية والغذاء والمسكن وغير ذلك ، ليكون عبداً لله ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون ﴾

" خلقتني وأنا عبدك " أنا عبدك ، أي قائم بما خلقتني لأجله وأوجدتني لتحقيقه ، أنا عبدك أي أنا عابد لك مطيع أمرك قائم بما أمرتني به ما استطعت ،

" وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت " على عهدك ووعدك أي ما عاهدتك عليه وواعدتك من امتثال أمرك والقيام بطاعتك ولزوم عبوديتك " ما استطعت " ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم " ما نهيتكم عنه فانتهاوا وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم " " صل قائماً فإن لم تستطع فجالساً فإن لم تستطع فعلى جنب "

" أعوذ بك من شر ما صنعت " أي من الأعمال السيئة والآثام والمعاصي الموجبة للعقوبة وسخط الرب سبحانه وتعالى ، " أعوذ بك من شر ما صنعت " أي أعوذ بك من شر كل أعمالى السيئة التي وقعت مني ، وهذا التعوذ من شر ما صنع العبد يشمل التعوذ من آثاره وعواقبه الوخيمة ويشمل من العوذ إلى مثله من الأعمال السيئة بأن يعيده الله فيقيه من هذه الأعمال ويجنبه الوقوع فيها ،

" أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي " أبوء بنعمتك ، نعمة مفرد مضاف ، والقاعدة في ذلك أنه يعم ، فالمراد بقوله " وأبوء لك بنعمتك علي " أي أبوء وأعترف بجميع نعمك علي من صحة وعافية وسمع وبصر وطعام وسكن وملبس " وأبوء بذنبي " أعترف بأني مقصر ومذنب ، أقر بذنوبي وأخطائي ، وبوابة التوبة الإقرار بالذنب والاعتراف به والشعور بالتقصير ، وهذا يفتح للعبد باب التوبة والاناة ،

ثم قال " فاغفر لي " هذا المطلوب وما قبله وسائل بين يدي هذا المطلوب " فاغفر لي " أي اغفر لي ذنبي واغفر لي خطيئتي وأقل عثرتي " فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " ﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ هذا فيه إيمان العبد بأن الله يغفر الذنوب مهما عظمت لا يتعاضمه ذنب ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

قال " إذا قالها حين يمسي فمات دخل الجنة أو كان من أهل الجنة وإذا قالها حين يصبح فمات يومه مثله " هذا فيه أن هذا الاستغفار بهذه الصيغة المباركة يشرع أن يقال في الصباح والمساء ويواظب عليه المسلم مواظبة يومية في الصباح مرة وفي المساء مرة ويقول عن يقين كما جاء في بعض روايته " من قالها موقناً بها " ، يقول ذلك عن يقين بالله وثقة بموعوده فإذا قال هذه الكلمات مستشعراً معانيها ومدلولاتها موقناً بربه راجياً فضله كان من أهل الجنة وهذا يفيدنا أهمية المواظبة على هذا الاستغفار كل يوم في الصباح والمساء .

[روى أبان بن عثمان قال سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الارض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات فلم يضره شيء " وكان أبان قد أصابه طرف فالج فجعل الرجل ينظر إليه فقال له أبان ما تنظر أما إن الحديث كما حدثتك ولكني

لم أقله يومئذ ليمضي الله علي قدره " أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي
حسن صحيح]

ثم أورد هذا الحديث الذي يُشرع للمسلم أن يقوله كل صباح ومساءً و أن من قاله حفظ ولم
يضره شيء يقول صلى الله عليه وسلم : " ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة بسم الله الذي لا
يضر مع اسمه شيء في الارض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات فلم يضره شيء "

" بسم الله " هذه الكلمة في هذا الموضع فيها استعانة بالله سبحانه وتعالى بأن يعيد العبد ، ففيها
التجاء إلى الله سبحانه وتعالى، لأن الجار والمجرور في قوله بسم الله يتعلق بمحذوف مقدر متعلق
بحال القائل ، فإن كان قراءة بسم الله أقرأ ، دخولاً بسم الله أدخل ، خروجاً بسم الله أخرج
، أكلاً بسم الله أكل ، تعوداً بسم الله استعيد ،

والمقام هنا مقام التعوذ والالتجاء إلى الله فقوله " بسم الله " أي بسم الله استعيد أطلب منه
العوذ متيمناً بذكر الله جل وعلا

" الذي لا يضر مع اسمه شيء في الارض ولا في السماء " ، فإذا ذكر اسم الله حفظ العبد ولم يضره
شيء ، وهذا كما أنه يفيد في هذا المقام حفظ العبد فإنه فائدة عامة في فضل الأذكار ، أن
في ذكر الله عموماً حفظ للعبد وأن الذاكر لله في حصن حصين وحرز متين لا يضره شيء
بإذن الله ،

قال " لم يضره شيء " أي لا يصيبه ، حتى لو قدر أن مثلاً هامة من الهوام أو دابة من
الدواب تعرضت له فإنه لا يضره سمها أو أذاها فالمنفي الضرر لا يضره شيء حتى لو قدر أن
حية لدغته أو عقرب أو نحو ذلك ، لا يصيبه ضرر ولا يجعل له أذى من سمها لا يضره شيء
يعني أن هذا الذكر بإذن الله يجعله الله سبباً لوقاية العبد من حصول الضرر له فيكون حامياً
وواقعياً للعبد فلم يضره شيء ،

قال " وكان أبان " الراوي للحديث عن عثمان " قد أصابه طرف فالج " يعني في شيء في طرف من بدنه الفالج ، والفالج هو شيء من الشلل في بعض أطرافه " أصابه فالج " كأن يكون مثلاً في يده أو طرف قدمه

" فجعل الرجل ينظر إليه " وهو يحدث بهذا الحديث والرجل حاضر في المجلس ينظر إليه ، ماذا تعني هذه النظرة ؟ يعني روايته للحديث لم يضره شيء وأنت أيها الراوي لهذا الحديث مصاب بهذا الفالج فكأن نظرات عيونه تطرح هذا السؤال ..

" فقال له أبان ما تنظر " أي شيء تنظر ، " أما إن الحديث كما حدثتك " لا تنظر إلي ويقع في نفسك ارتياب في الحديث ، سبحان الله كثير من الناس يتلى في هذا الباب ، باب الانتفاع بالأذكار المأثورة عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بإخضاعها أولاً للتجربة وبناء ذلك على التجارب ثم بعد ذلك تكون القناعة أو لا تكون وهذه مصيبة ، يكفي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لم يضره شيء " يكفي ذلك لا يحتاج أن ينظر جرب فلان أم لم يُجرب ، تضرر فلان أو لم يتضرر ، هذا كلام الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، قال " فقال له أبان ما تنظر أما إن الحديث كما حدثتك " لا يضره شيء يعني كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم لا يضره شيء ، " ولكني لم أقله يومئذ " يعني اليوم الذي أصبت بهذه الإصابة لم أقله ، قال " ولكني لم أقله يومئذ ليمضي الله علي قدره " وهذا يستفاد منه أهمية المواظبة كل يوم ، وتحرص أن لا يفوتك يوم من الأيام حتى تكون هذه الفائدة والثمرة معك في كل يوم " لم يضره شيء " .

[وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه " انفراد به مسلم]

ثم ختم بهذا الحديث حديث أبي هريرة رضي الله عنه " من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة " أي مائة مرة في الصباح ومائة مرة في المساء سبحان الله وبحمده ، وسبحان

الله وبحمده عندما تقولها بهذه الطريقة هادئاً مطمئناً سبحان الله وبحمده سبحان الله وبحمده ما تأخذ دقيقتين ، ربما يستثقلها بعض الناس يقول مائة مرة ويظن أنها كثيرة وهي ما تأخذ دقيقتين وإن اطمأنت أكثر لا تزيد عن ثلاث دقائق ، لا تأخذ وقتاً لكن انظر هذه الثمرة " لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه " زاد عليه أي من الأذكار الأخرى المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ليس معنى زاد عليه أن تقول سبحان الله وبحمده مائة وعشرة ، لا ، بل تعدها مائة مرة في الصباح ومائة مرة في المساء تزيد الأذكار الأخرى المقيدة والأذكار المطلقة تكثر ذكر الله

وقول " سبحان الله وبحمده " جمع بين التنزيه والاثبات ، التسبيح تنزيه والحمد إثبات ، تنزيه الله عن النقائص والعيوب وإثبات الكمال له سبحانه وتعالى .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه